

فلاسفة الرواق

الدكتور عنان أمين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كروسيوس (١)

١ - شخصية * هو تلميذ « كيانس » وآخر ممثلي الرواية القديمة وأبدم أثرًا وأكثرهم إنتاجًا عقليًا . ذكر ديوجانس اللايرتي أن القدماء كانوا يقولون : « لولا كروسيوس لما أمكن أن تقوم مدرسة الرواق قائمة » بعد اضطهادها في عهد « كيانس » (٢) .
ولد كروسيوس حوالي سنة ٢٧٧ ق.م في مدينة « صول » بجزيرة قبرص . وكانت قبرص في ذلك الحين مسرحًا للنزاعات السياسية بين البطالمة حكام مصر من جهة وبين ديمتريوس والطيغوناس من جهة أخرى . واذن كانت جزيرة قبرص بلاداً قد قضى فيها على التقاليد القومية وحال فيها قلب الحكام والسادة الفاتحين دون ازدهار الشعور بحب الوطن (٣) فلم يكن من العسير على كروسيوس وقد نشأ في بلاد كهذه أن يجعل المثل الأعلى في الأخلاق فكرة الجامعة العقلية الروحية التي تنادي بأن الفيلسوف لا وطن له أو أن وطنه هو الكون بأسره .

وكان لكروسيوس قوة على الجدل عظيمة حتى قيل في عصره ، لو كان بالألطة حاجة إلى فن الجدل لآخذوا جدل كروسيوس . ولقد كان كروسيوس نفسه - كما يرى - يقول لساتذته أنه ليس بحاجة إلى شيء أكثر من تقرير المسألة وهو كقيل بأن يجد من نفسه البرهان عليهم (٤) ولقد طالب عليه بعضهم مرة أنه لم يجاز الجمهور في الذهاب إلى استماع

(١) يذكره القفطي باسم « كرسوس » أخبار الحكماء، ص ١٣٢٦ من ١٧١ ، والشهرستاني

باسم « كروسيوس » الفيل والتحل طبع مع ١ بهامش الفصل لاني حزم ١ ص ٣٩٩

(٢) Diogène Laerce, Vie des Philosophes VII: 183.

(٣) Bréhier, Cléopâtre, p. 5

(٤) Diogène Laerce, VII, 179

دروس « ارسطو ١٦٠ فأجاب « لو انني كنت ثابتة الجمهور لما درست الفلسفة^(١) » وهذا دليل على مبلغ « صبح عليه من الاعتداد بالنفس وقلة التواضع

٢ — « أساتذته » تنفذ كروسيوس لكياتنس في الروان . ويروي « سطيون » الاسكندري أن « كروسيوس » كان يختلف الى الاكاديمية المناسبة للرواقية . وكان يحضر الدروس التي كان يلقيها « ارقيزيلاس » و « لافيدس » ويقول « ديوجانس اللايرسي » ان هذا يفسر لنا كيف ان « كروسيوس » كتب رسالة في مناقب « العادة » وفي مساوئها كما يفسر استعماله منهج الاكاديمية في الكلام على المحجوم والاعداد^(٢) . ويذكر « شيشرون » شيئاً عن مشهور رسالة « كروسيوس » هذه التي جمع فيها مائة من أقوال الاكاديميين وحججهم في نقض معيار الحقيقة . ويضيف أن « قريادس » — وهو من أنصار الاكاديمية الجديدة — لم يكن محتاجاً الى أن يخترع حججاً جديدة لطدم معيار الحقيقة بل كان يكتب بما أورده « كروسيوس » في رسالته التقدمية المذكور^(٣)

لكن فيما أورده « سطيون » عن اختلاف كروسيوس الى الاكاديمية ما يدعو الى الظن أن تلك القصة ليست الا افتراضاً محضاً فصد منه أن يفسر لنا وجود نظريات الاكاديمية مبسطة في مؤلفات كروسيوس . ولعل هذا يدل على رغبة كروسيوس في أن يقف تمام الوفور على حجج خصومه وعلى تحميره الدقة في العلم بأرائهم^(٤)

٣ — « تعليمه » ويظهر ان كروسيوس جعل من التعليم شغله الشاغل حين تولى الاشراف على الرواق . فقد أجمع رواية الاخبار على انه كان يُعنى على الدوام بحسن ادارة المدرسة وانتظام سيرها وحتى انه كان من الاساتذة المجتهدين يؤدي مهمته كل يوم بهمة لا تعرف الملل^(٥) والذي ورد في القهرست انه رقبولاني من النظام ساعات دروسه قد يذكر بالموعد المنبسط الذي كان يحرص فيه الفيلسوف الالائي « كانت » كل يوم طلباً للرياسة

كان زنون صديقاً لانيطرياس ملك مقدونيا كما ذكرنا واتصل « سفيروس » الرواقي بالملك « كليومين » ثم بيلاط الملك « فيلواطر » بالاسكندرية^(٦) لكن كروسيوس لم يتصل بأحد من هؤلاء الخاد . وبسعي أن تفر مع « ديوجانس اللايرسي » آفة وحده خالف العادة

Diogène Laërce, VII, 183-184 (١) — Diogène Laërce, VII, 182 (٢)

Cicéron, Proence Académiques, II, 87. — Arnim, 114 (٣)

Diogène Laërce, VII, 182 et Brehier, Chrysippe, p. 11 (٤)

Diogène Laërce, VII, 7 (٥)

المتبعة في اهداء الكتب الى الملوك فلم يهد من مصنفاته الكثيرة شيئاً الى ملك أو امير (١) ولعل أهم طابع في منهج التعليم عند « كروسيوس » هو انه نظري تقني (دجانيق) فقد كان الناس حتى ذلك العهد يسرون على التقاليد السفسطائية التي تنحون نحواً عملياً صرفاً في التعليم، فكان هم المدارس أن تلقن الطلاب بواسطة التدريب على الخطابة كيف يمهرون في تأييد الآراء أو تقضها على السواء. وذاغت تلك الطريقة في التعليم حتى كادت مدرسة ارسطو نفسها أن نصير شيئاً فشيئاً مدرسة لتخريج الخطباء (٢) واتخذت الاكاديمية منذ « ارفيزيلاس » « منهج جورجياس » « السفسطائي » وهو عبارة عن الكلام في نقض كل رأي يطرح للبحث أو تأييد أي رأي كان. وأمثال تلك المناهج في التربية والتعليم تدل على شيء من التشكك وعلى ان العناية من التعليم عملية صرفة كما اشرنا. لكن « كروسيوس » وإن لم يكن يستنكر كل الاستنكار طريقة عرض الآراء المخالفة، كان يرى فساد هذا المنهج مادام الباحث يريد لاقتناصاً عملياً بل علماء اخلاقياً. ذلك ان معارضة الحق بالرأي الشبيه بالحق قد تزعزعه في النفس، وهذا لا يناسب الآمن يريدون التوقف في الحكم. ومن أجل ذلك وجب في عرض آراء مخالفة لآرائنا أن لا نعرضها إلا بعد ان نهدم ما يجعلها شبيهة بالحق (٣)

٤ — « كروسيوس وأقربته المنطقية » يذكر ديوجانس اللايرسي أن كروسيوس كان يصوغ أقضية منطقية من القبيل الآتي : « ما ليس في المدينة ليس في البيت أيضاً . ولا بئر في المدينة ، اذن لا بئر في المنزل » وقوله « يوجد رأس ما ، وذلك الرأس ليس لك . فإذا كان ذلك كذلك فهناك رأس ليس لك واذن أنت من دون رأس » ثم قوله « اذا كان شخص في ميغارا فهو ليس في أثينا . ويوجد الآن رجل في ميغارا ، اذن لا يوجد أحد في أثينا » ومنها قوله « اذا قلت شيئاً مسراً من شفتيك . وأنت تقول عربية . اذن هنالك عربية تمر من شفتيك » وقوله « اذا لم تكن فقدت شيئاً قط فأنت ما زلت مالكاً نياه . ونكتك لم تفقد قط فرواً . اذن فأنت صاحب فروان (٤) » . . .

ولم يبين لنا ديوجانس اللايرسي ماذا كان قصد « كروسيوس » من ايراد أمثال هذه الأقضية المجيبة . ولكن يحيل ابننا أن « كروسيوس » إنما أوردها مازحاً ، وأنه أراد أن

Diogenes Laertius, 46 - ٢ — Diogenes Laertius, VII, 154 (C)

Plutarque, De Stoïc, repara. 10 cité par Bréhaut, Chrysippe, p. 16 (C)

Diogenes Laertius, VII, 156-157 (C)

بين قلة الكتابة في أقيسة المنطق الصوري الأرسطاطاليسي وأنها يمكن أن تؤدي إلى نتائج مضحكة لا تخفى من سخرى وأن تكن سليمة من حيث الصورة ، وعلى ذلك تكون مراعاة المادة في المنطق واجبة

٥ - ﴿ مصنفات كروسيوس ﴾ كان كروسيوس واسع الإطلاع دائم التأليف أراد أن ينشئ في علوم زمانه موسوعة تحمل على الموسوعة الأرسطاطاليسية فألف في المنطق والطبيعات والاخلاقيات ، ألف فيما روى أيضاً وسعياً كتاب لم يبق منها إلا شذوذاً قصيرة أورد ديوجانس اللايرسي فهرساً لكتب كروسيوس ^(١) فذكر فيه ١١٩ مصنفاً في المنطق — أكثرها مقصورة لا تزيد على فصل واحد — وذكر ٤٣ كتاباً في الاخلاق . ولكن الفهرس المنطقي ناقص في أوله ، وفي ترتيب مواده اضطراب كبير . فهو لا يوافق تقسيم المنطق عند كروسيوس على نحو ما عرفه ديوقليس الماغنيسي ^(٢) وعلى نحو ما يستفاد من كلام شيشرون ^(٣) . ثم إن فهرس الكتب الاخلاقية مضطرب كذلك أشد اضطراب فهو يحوي عدداً كبيراً من المصنفات المنطقية قد دسّت فيه دسّاً . وأذن فهذا الفهرس كله ليس مصدره « كروسيوس » بل الظاهر ان واضعه أحد التيمين على المكتبات القديمة الذين يجهلون أهم ما في ثقافة الرواقية ^(٤)

وإذا كان فهرس ديوجانس اللايرسي قد خلا من ذكر المصنفات الطبيعية لكروسيوس فإن من الكتابات الأخرى كيشرون وبوطرخس من ذكروا من هذا القبيل ١٩ مصنفاً طبيعياً ^(٥)

ومن مصنفات كروسيوس المشهورة في الطبيعات (ولم يذكرها ديوجانس اللايرسي) رسالة في النفس ورسالة في الآلهة ورسالة في القماء والتقدر ورسالة في العناية ومن مصنفات كروسيوس في الاخلاق رسالة في اللاهواء ^(٦) ورسالة في الفرق بين الفضائل ^(٧) ورسالة في الجمهورية ^(٨)

(١) Diogene Laerte, VII, 108-202

(٢) Diogene Laerte, VII, 2 (29-30)

(٣) Cicero, De finibus, I, 22, 113

(٤) Brehier, Chrysippe, 30 (51) Brehier, Chrysippe, p. 20-23

(٥) Diogene Laerte, VII, 2 (٧) Brehier, Chrysippe, 30-31

Brehier, Chrysippe, 33-35 - A

٦ — ﴿ نظريات كروسيوس الخاصة ﴾ : روى بطرخس أن كروسيوس بسط نظرية المعاني السابقة ونظرية المعاني الثامنة بسطاً وافياً ورتبها ترتيباً واضحاً. وقال شيشرون إن كروسيوس هو صاحب النظرية التي يفرق فيها بين العال الأول والعال الثانية ليرفّق بين نظرية القضاء والقدر وبين فكرة المسؤولية والحرية الاخلاقية ؛ فقال ان القضاء المحتوم إنما ينصب على العال الثانية . اما ميولنا وهي العال الاول فهي في مقدورنا ونحن أحرار في توجيهها ^(١)

ولكن عيب على كروسيوس اسرافه في نظرية الرواق عن الاشياء « السواء » أهني الاشياء التي ليست خيراً ولا شراً كالحياة واللذة والارتواق . وأخذ على كروسيوس كذلك أنه أباح في كتابه الجمهورية التزوج من الاقربين كزواج الاب من ابنته والابن من أمه والاخ من أخته . وانه في كتابه العدالة أباح للناس أن يأكلوا لحوم البشر ^(٢)

وعاب خصوم كروسيوس عليه ؛ فضلاً عما ذكرناه ؛ ان أسلوبه كان ثقيلاً وان لغته لم تكن مهذبة مختارة وانه مثلاً حين فسّر قصة « هيرا » و « زيوس » فدققه بالفاظ لا تليق بجلال الآلهة بل هي أول ما أن تصدر من « أولاد الشوارع » كما قال ديوجانس اللايرسي ^(٣) والحقيقة ان كروسيوس كان دائماً مضطراً الى ان يتكلم أو أن يكتب مستعجلاً اما لتوضيح مسألة أو لرد على خصم فلم ينطع في مثل تلك الحال ان يتوخى في أقواله أو في مصنفاته ما كان يترعاه ككتاب ذلك الزمان من رشاقة العبارة وجمال الاسلوب ^(٤)

٧ — ﴿ مهمة كروسيوس في الرواق ﴾ حمل كروسيوس عبء التراث الرواق فكان عليه أن يضطلع بواجبين : الاول — ان يجمع كلمة الرواقين بعد أن تفرقوا شيئاً كثيرة لا النسيان بينها ولا خطر لها . والثاني — أن يدفع عن الرواق هجمات الخصوم أو المنافقين . أما الواجب الاول فقد وفق كروسيوس في أدائه . إذ تولى الرد على « ارسطون » و « هيرولوس » بل « كليانس » . وكانت ردوده حاسمة فوضع بذلك حداً للمناقشات النظرية التي كانت سبباً في انشقاق الرواقين عن أنفسهم . وأما الخصوم والمنافسون الذين كان عليه أن يواجههم فكثيرون ، أهمهم ينتمون الى مدرستين أحدهما الابيقورية وهي معاصرة على وجه التقريب للمدرسة الرواقية والثانية هي الاكاديمية الجديدة وهي مدرسة كانت تنسب الى افلاطون

Diogène Laerce, VII, 188 (٢) Ciceron, De fat. 18 (١)

Diogène Laerce, VII 180 (٤) Diogène Laerce, VII, 187-188 (٣)

ولكنها رأيت ان تدعو باسمه الى مذهب التشكك . ولتخاول ان ترى الآن ما صي أن يكون شعور كروسيوس ورواقيين نحو هاتين المدرستين
 أما الايقوريون فلم يكن الرواقيون ينظرون اليهم إلا نظرات الازدراء . فالايقوريون قوم لا ثقافة لهم . يحقرون الجدل فلا يجيبون على حجج الرواقين القوية وأعتراضاتهم الدقيقة إلا بتصريحات غامضة وتوكيدات عامة من غير دليل . وكثيراً ما كانوا يحاولون الاجابة عن نتائج الاستدلالات المنطقية فيقعون بشوطهم « ليس هذا صحيحاً » . فإذا أراد الرواقيون مثلاً أن يبرهنوا لهم على ان اللذة ليست في عداد الخيرات ورأيتهم يجيبون . « اللذة خير . هذا شيء نحسه كما نحس ان النار تحترق ولا يمكن ان يبرهن عليه »
 لكن موقف الرواقين من شكك الاكاديمية كان في الحق موقفاً يخالف موقفهم من الايقوريين . كان لا بد لكروسيوس ان يدافع ادلتهم وان يقارع حججهم بما لا يقل عنها قوة وبراعة . فاضطر ان يحاربهم مثل أسلحتهم فاتهمج في ذلك منطقاً دقيقاً صبوراً وكان له منه ما أراد . بل انه بلغ من المهارة في فنون الجدل والحجاجة وانارة الشكوك ما لا مطمع وراءه

ولكن مذهباً كان مضطراً الى الدفاع عن أمره في شتى النواحي كان لا بد له ان يتبع شيئاً فشيئاً وان يزيد وضوحاً . وأكبر الظن ان كروسيوس بقي مخلصاً لآراء زينون في المواضيع الأساسية ولم يمنعه ذلك من ان يضيف اليها بعض التفاصيل وان يوضح ما كان عنها بحاجة الى ايضاح حتى أصبحت الرواقية بفضل جهوده فلسفة تامة مرتبطة بالأجزاء واضحة المعالم . ومن المحقق ان كروسيوس اوضح طائفة من السائل خلت غامضة بعد زينون وكليات من من ذلك مسألة معيار اليقين والعرفة . وكروسيوس هو يقيناً صاحب الفضل الأكبر في بناء علم النفس الرواقى وهو على الخصوص المنشىء للنطق الرواقى كله او يكاد . فإذا كان ذلك كذلك فما نظن ان تقدماء كانوا مقالين حين قالوا . « لولم يوجد كروسيوس ما وجد الرواق » (١)

وجملة القول ان كروسيوس دافع عن المذهب الرواقى دفاعاً قوياً مستمراً ولم تسلك عزيمته من مناصرة المدرسة على كثرة الهجمات التي كانت ترد اليه من كل صوب ، من الايقوريين ومن الشكك ومن تلاميذ « زينوقراط » و « استراتون » وغيرهم . ولا شك ان كروسيوس هو الذي دأب على تنظيم الرواقية وبسطها بسطاً ثبتت به دعائمها مدى خمسة قرون ، حتى جاء افلاطين الاسكندردي ففرض بطلته جميع المذاهب المادية